اشكالية النقد العربي المعاصر

مقدمة كتاب « محمد مندور وتنظير النقد العربي »

بقلم
د. محمد برادة

من بين الاسباب التي حدت بي الى اختيار دراسة أعمال الناقد محمد مندور ، ما لاحظته من تفاوت مستمر بين النقد العربي المعاصر والنقد الغربي : ذلك ان ثقافتنا تتأخر دائما في التعرف على الاتجاهات والمذاهب الاجنبية، وكثيرا ما يتم التعرف بعد أن تصبح تلك الكتابات مستنفدة لاغراضها عند من صاغوها . يضاف الى ذلك ان هذا التعرف قلما يكون تاما ودقيقا ، ويلزمه الكثير ليصبح مبنيا على فكر نقدي قادر على التمثل والاستيعاب .

وأحسن مثل يوضح ملاحظتنا ، استحضار المسار الذي قطعه المذهب الوجودي ليلتقي بالفكر العربي . فبالرغم من ان هذا المذهب رافق الحرب العالمية الثانية وعاش ازدهاره في بداية الخمسينات ، فان ترجمة بعض أعمال سارتر وسيمون دي بوفوار لم تظهر الا ابتداء من سنة ١٩٥٥ . واذا كانت موضوعة الالتزام قد تسربت بكيفية أو بأخرى ، الى صفوف نخبة المثقفين العرب في الحقبة نفسها ، فان النص الاساسي الذي أوضح فيه سارتر أسس نظرية الالتزام ، لم يترجم الا في سنة ١٩٦٠ (١) .

وبالامكان تعداد الامثلة . وأقربها الينا زمنيا ، الابحاث المتصلة بمجال اللسنيات والبنيوية . ذلك ان القارىء العربي الذي لا يعرف لغة أجنبية ، لم تتناه اليه أصداء هذه الدراسات ، وبخاصة دراسات النقد الجديد ، الا في سنة ١٩٧٠ (٢) .

الى جانب هذه الملاحظة ، هناك التشخيصات ذات المظهر المتعمق ، التي ما انفك بعض نقادنا يجترونها حول أزمة النقد العربي . في رأيهم ، كل الضعف مصدره انعدام نظريات فلسفية تسند المدارس النقدية كما هو الحال بالنسبة للثقافات المتقدمة ... (٣) .

على انه اذا كانت هاتان الملاحظتان تؤكدان الازمة ، فان هذه الاخيرة ما تزال في حاجة الى تشخيص وتحليل . ويبدو لي شخصيا ، رغم المقالات والاحاديث والخطب التي دبجت بقصد توضيح أصول الازمة التي يتخبط فيها الادب العربي ، ان الحاجة ما تزال ماسة لاعادة النظر في المسلمات والاسس التي ترتكز عليها مفاهيمنا الثقافية المسؤولة على هذا المأزق الذي نستشعره في كل المجالات .

وكان لا بد من صدمة كـ يونيو ١٩٦٧ ، لكي يجرؤ بعض المثقفين على التفكير بطريقة جذرية وبصوت جهير . والاتجاه السائد اليوم عند الطليعة يتبلور في ضرورة : اعادة صنع كل شيء من جديد .

أما في ميدان النقد الادبي فان الحصيلة عجفاء : سواء في مجال تحليل الشروط الاجتماعية للانتاج الادبي أو في مجال الابحاث اللسنية والجمالية ، تبدو الادوات والمنطلقات غير ملائمة . ذلك انه بالرغم من كثرة الرسائل الجامعية والدراسات المتخصصة في الادب العربي ، يبقى معظم هذه الكتابات منغلقا في مفاهيم ومناهج

---

(١) ترجم كتاب « ما الادب ؟ » مرتين : ترجمه محمد غنيمي هلال (دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٦١) ، ثم ترجمه جورج طرابيشي بعنوان « الادب الملتزم » (دار الآداب ، بيروت ، ١٩٦٠) .

(٢) اطلعنا على كتاب التحليل الاجتماعي للادب لمؤلفه سيد ياسين (مكتبة الانجلو ، القاهرة ، ١٩٧٠) ، وهو لا يعدو ان يكون كتابا تعريفيا بأعمال الناقد الماركسي الجديد لوسيان كولدمان، مع تلخيص جد مقتضب لبعض الاعمال النقدية الجديدة في مجال اللسنيات والبنيوية .

(٣) نجد مثالا لهذا التشخيص في كتاب غالي شكري : « ثورة الفكر في أدبنا الحديث » ، مكتبة الانجلو ، القاهرة، ١٩٦٥ . وكذلك في المقال الذي كتبه محيي الدين محمد بمجلة « الطليعة » (أوغست ١٩٦٩) تحت عنوان : « حاجتنا الى فلسفة جمالية ونقدية » .

لاتاريخية وانطباعية ، وان كان هؤلاء الدارسون يكثرون من اعلان تشبثهم بالمبادىء « العلمية » خاصة في المقدمات والخواتم (٤) .

والواقع ان العديد من الدراسات المنشورة منذ بداية هذا القرن ، تنضح بالتأويلات المثالية وبالانتقائية ، مما يجعلها تنوء تحت ظلال المناهج المقتبسة في عجالة ، والمستعملة لاغراض آنية .

لكن هذه الملاحظة لا تمنعنا من الاقرار بالخدمات التي قدمتها بعض هذه الدراسات المرتبطة بسياق اجتماعي وتاريخي معين . ونكتفي بالاشارة الى مثال مستمد من دراسات طه حسين النقدية ، فعندما حاول أن يعيد الاعتبار للشعراء « الملعونين » استنادا الى مقاييس فنية ، اضطر الى التذكير بحقائق اصبحت الآن ضمن المسلمات لدينا ، ولكنها كانت غير مقبولة عند غالبية الرأي العام المسلم منذ اربعين سنة . ومن ثم تلك الضجة التي أثارها المتزمتون حينما حاول طه حسين أن يربط بين حياة اللهو والخلاعة لبعض الشعراء كأبي نواس وبشار ، وبين المناخ العام للمجتمع العباسي الذي كان يسمح بازدواجية السلوكات والتأرجح بين المتعة والزهد حتى بين الخلفاء والامراء (٥) .

الا ان هذا المنظور الذي انطلق منه طه حسين غير كاف ، ليس فقط لانه يفترض مسبقا ترابطا آليا بين الشاعر والبيئة ، بل كذلك ، وبالخصوص ، لان النص الادبي يفقد الكثير من جوهره عندما يختزل الى مجرد مرآة عاكسة . ومن ثم فان العلاقات المعقدة القائمة بين النص / والمنتج / والمجتمع ، تظل في حاجة الى التجلية والتحليل (٦) .

طبيعي ان المرحلة التاريخية التي يعيشها المجتمع العربي المرتبط بالاجنبي والمتطلع الى استكمال التحرر الوطني ، تؤطر نشاطات ومواقف المثقفين وتلقي على عاتقهم مسؤوليات تتعدى نطاق الاختصاص ، وتتجاوز الادوار المحددة لهم في المجتمعات « العادية » . وتجد مثالا لذلك في روسيا القيصرية حيث لم يكن بامكان تشيرنيفسكي أو بيلنسكي أن يكونا مجرد ناقدين يساعدان القراء على فك ألغاز الاعمال الادبية .

لا عجب اذن ، واستنادا الى هذه الملاحظة ، أن يكون النقاد العرب الذين مارسوا تأثيرا على ثقافتنا المعاصرة ليسوا هم أولئك الذين أعادوا دراسة اعجاز القرآن من المنظور القديم نفسه ، أو شرحوا معلقات الشعراء الجاهليين دفاعا عن « خلود » اللغة العربية ... وانما اثر النقاد الذين حاولوا الانخراط في حركةالتاريخ بكليتها وجدليتها ، وابرزوا ديناميتها في مجالالثقافة.. فالامر يتعلق ، في العمق ، بتشييد الثقافة القومية المثلومة والمستلبة تحت وطأة الاستعمار ، ونتيجة لجمود المتشبثين بأذيال الماضي .

ان هذه التقييمات العامة هي التي تحدد ، منذ البداية ، جوانب دراستنا لمندور : اذ لا يمكن أن ندرس ناقدا « ناشطا » في مجتمع تعرض للمثاقفة ، استنادا الى كتاباته فقط ، وبمعزل عن الشروط المتحكمة في المجال الثقافي الذي ينتمي اليه .

اننا غير مقتنعين بالمنهج الذي يتخذ المذاهب الادبية المقتبسة عن أوروبا ، اطارا مميزا للممارسات النقدية العربية ، لان ظروف النشأة والمكونات ومسار التطور والتبلور متغايرة بالحتم . ومن ثم فان كل تعميم لمثل هذه المقاييس لا ينفذ الى خصوصية الاتجاهات عندنا . واذا كان بعض النقاد الغربيين ينتهون ، مثلا ، الى تحديد النقد بأنه : « تعميم لممارسة ادبية متعاصرة » مما يجعل : « المناهج النقدية للفترة الكلاسيكية مبنية على ضوء الاعمال الادبية للكلاسيكيين، والنقد الرومانسي يتبنى مبادىء الرومانسية نفسها (أي التحليل النفسي واللامنطق الخ ..) » (٧) ، فاننا لا نرى جدوى في مثل هذا التعريف مطبقا على حركتنا النقدية .

معنى ذلك ، بعبارة ثانية ، ان تحديد مركز الثقل لاحد المفاهيم أو لمجموعة مصطلحات منقولة الى مناخات أدبية أخرى ، يستلزم الرجوع الى المصدر الاولي لهذه الادوات المفهومية . ان هذا التحوط المنهجي يفرض نفسه علينا ، لاننا نعلم ان معظم نقادنا ، منذ حسين المرصفي ، قد اتجهوا صوب المستودع الادبي الاوروبي بحثا عن أدوات التحليل والتفسير ، حتى عندما حاولوا اعادة تقييم روائع التراث العربي . وهذا ما يترك في نفوسنا ، عند قراءة العقاد والمازني وطه حسين

---

(٤) خاصة عند النقاد النفسانيين مثل محمد أحمد خلف الله ، ومحمد النويهي .

(٥) انظر « حديث الاربعاء » ، دار المعارف ، القاهرة ، ج ٢ .

(٦) يمكن القول ، باختصار ، بان الخصائص الاساسية لهذا النهج النقدي الذي طبقه طه حسين وتلامذته ، للتقي بالاتجاه الوضعي الذي كان متالقا في بداية هذا القرن بفرنسا خصوصا عند كيستاف لانسون . ووجه الالتقاء والتشابه يتجلى اساسا في توظيف المعرفة الجامعية فيمجال التنقيب وتجميع الاحداث والوقائع « الثابتة » بغرض الوصول الى حقيقة شاملة ... الا ان هذا المفهوم الوضعي لتاريخ الادب الذي يعوض الجدلية بالآلية ، لا ينتهي ، في احسن الحالات ، الا الى اعادة تشكيل جامدة للعمل الفني او للفترة التاريخية المدروسة . (سنتناول هذا الاتجاه بتطويل في الفصل الاخير) .

(٧) هذا التعريف لكريستين بومورسكو ، ذكره ت. تودوروف .

وهيكل ... ، الانطباع بأنهم يجهدون في ابراز قيمة التراث عن طريق اظهار امكانية تطبيق المناهج الغربية على جوانبه الهامة ، حتى لا يكون مختلفا في شيء عن التراثات الادبية للامم « المتقدمة » (٨) .

في الآن نفسه نلاحظ انمحاولات النقاد «الخلّص» الذين حاربوا الثقافة المستوردة ، لم ينجحوا في اعادة تقييم التراث بالاعتماد فقط على مفاهيم مستخلصة من الثقافة العربية التقليدية . وبدلا من أن يجددوا النقد العربي على أسس يريدونها « أصيلة » ، انتهى بهم الامر الى نفض الغبار عن قاموس البلاغة القديمة . شاهدنا ، في النهاية ، مجهودات مصطفى صادق الرافعي وأحمد حسن الزيات تنضاف الى الكتب والشروح البلاغية المعروفة منذ أبي هلال العسكري (٩) .

اذا أبعدنا اتجاه هؤلاء النقاد « الخلّص » ، وهو ابعاد يفرض نفسه على الاقل بسبب عدم توفر هذا الاتجاه على آفاق وفعالية نتيجة لتجاهله للتاريخانية ، فان الاتجاه الحديث (الذي تعرض للمثاقفة) هو ما يتيح لنا تتبع مسار اشكالية النقد العربي المعاصر .

على اننا لا نتغيّا استعراض الحصيلة النقدية أو التأريخ لها ، بل ابراز اللحظات الاساسية التي يرتكز عليها نمط من التنظير ، وتجلية الخطوات المرتبطة بكثير من العوامل التي أعطت هذا النقد امكاناته وحدوده .

نستطيع الآن ، نتيجة للتباعد الزمني الفاصل بيننا وبين بداية النهضة العربية ، أن نضع الاصبع على أصل أزمة النقد العربي التي لا يمكن فصلها عن الازمة الشاملة للمجتمع . وحين نربط بين الازمتين لا نقصد التخلص من شيء محدود بتعويمه في متاهة دائمة الحركة ، اذ يلزم الانطلاق من المظاهر « المحلية » لأزمة النقد ، لكن دون اغفال تفاعلها مع المحددات الاجتماعية والسيرورة التاريخية . ذلك ان ربط الحقل الادبي بالحقل السياسي وبالمؤثرات الاجنبية يفسح المجال أكثر ، لموضعة النقاد وفهم اوالية (ميكانيزم) النقد الادبي وطرائقه في تفاعل جدلي مع الثقافة والمجتمع . وما يجعلنا نلحّ على هذه النقطة هو غياب الدراسات الاجتماعية للادب من منظور واضح لا يرمي الى اضفاء هالات القداسة والرضا على النفس .

لقد تساءلت ، من جهتي ، عن امكانية الاسهام في دراسة اشكالية النقد العربي . وأفضى بي التفكير ، مع مراعاة قدراتي والوقت المتوفر لديّ ، الى الاقتصار على دراسة أعمال ناقد واحد وملاحقة مفاهيمه ومساره النظري ، لان من شأن هذه الدراسة ذات المنطلق المحدود ، أن تساعد على توضيح امكانات وحدود نظرية نفدية متوثقة الصلة بمرحلة معينة ، وبتطبيقات وممارسات يمكن تشريحها . ولكي تكون مثل هذه الدراسة مجدية يتحتم اختيار ناقد ذي « تمثيلية » ثقافية حتى لا تبقى المشاكل المطروحة سجينة الخصوصية والهامشية .

خلال اقامتي الدراسية بمصر (من ١٩٥٥ الى ١٩٦٠) كانت كتابات محمد مندور تملأ الصحائف والاسماع ، وكان صاحبها يواصل بالجدية والصدق اللذين عرف بهما منذ ١٩٤٤ ، نضاله ومعاركه لبلورة مذهب أطلق عليه « المنهج الايديولوجي في النقد » ، اعتقادا منه ان هذا الاتجاه هو الذي سينقذ النقد العربي من ضعفه ، لانه حصيلة مسار خصب ومتنوع . ولا شك ان المناخ المحموم الناجم عن صعود فكرة القومية العربية والفهم العاطفي الذي طرحت به ، قد قوى من وهم الخلاص عن طريق بلورة ايديولوجية متميزة وسحبها على كل المجالات .

طبيعي أن تعقب تلك الفورة القومانية ساعات التعمق والنقد ، لان مشروعية الحركات وضرورتها لا تبرر الابتسار والمغالاة في معاكسة منطق العقل ، وجدية التحليل . ولان التاريخ ، في النهاية ، لا تصنعه رغائب وطموحات الاشخاص .

دقت ، اذن ، أجراس النقد بأصوات مختلفة وعلى درجات متفاوتة من الوعي والادراك . لكن ما نحرص على تسجيله هنا ، هو ان الذين اضلعوا بمهمة وضع مناهجنا النقدية موضع التساؤل ليسوا هم أساتذة الجامعة هذه المرة : لقد انقضى ذلك الزمن الذي جرؤ فيه طه حسين على التوسل بالشك الديكارتي لدراسة الشعر الجاهلي .. انقضى ذلك الزمن وتحولت الجامعة الى سلطة لكفالة المشروعية الثقافية ، وتخريج الاطارات والباحثين المنسجمين مع المؤسسات المسيطرة .

في المرحلة الاخيرة من تاريخ مصر ، أصبحت معظم الاطروحات الجامعية تستهدف الحصول على وظيفة أو كرسي ، وأضحى الاساتذة يتحصنون في عزلة أبراجهم العاجية . لم يبق في الميدان سوى النقاد الذين تحركهم حوافز أخرى تحدو بهم الى ربط الثقافة بالصراع الاجتماعي والسياسي وتحمل عواقب هذا الاختيار في شجاعة (١٠) .

---

(٨) إلتقي ملاحظتنا مع رأي عبد الله العروي حول قيمة كتاب في الشعر الجاهلي لطه حسين . يقول في هذا الصدد : « الم يكن طه حسين يقصد ، بالاحرى ، الى تشكيك العرب في ماضيهم ومحاربة اعجابهم بالذات ، من اجل تمهيد الطريق أمام اصلاحات ليبرالية ذات جوهر أجنبي كانت تثير ردود فعل رافضة جد قوية ؟.. » (الايديولوجية العربية المعاصرة، ماسبيرو ، ١٩٧٠ ، ص ١٠٤ .

(٩) نجد مثالا لذلك في كتاب مصطفى صادق الرافعي : « اعجاز القرآن والبلاغة النبوية » ، مكتبة الاستقامة ، القاهرة ، ١٩٥٢ .

(١٠) أحسن مثال ما تعرض له محمود أمين العالم ود. لويس عوض من « ابعاد » عن الجامعة المصرية بسبب أفكارهما السياسية.

لكل هـــذه الاعتبارات توخينا الاستفادة ، في دراستنا ، من المناهج والابحاث المنجزة في مجال علم الاجتماع الادبي وتطبيقاته النقدية لانها تعطي الاسبقية للجدلية التاريخية . صحيح ان الثقافة العربية لا يمكنها أن تظل بمعزل عن المناهج الحديثة المتناسلة في مجال العلوم الانسانية ، ولكن السؤال الجوهري المطروح هو : كيف السبيل الى اختيار المنهج الملائم ؟

بتعبير آخر ، كيف يمكن تجنب الفهم الخاضع للمثاقفة عند معظم النقاد العرب الذين يعمدون الى اختيار مناهجهم وأدواتهم التحليلية من مستودع المناهج الاجنبية بدون أن يتمثلوها تمثلا نقديا ، وبدون مراعاة خصوصية المعطيات التي يدرسونها ؟

ان انعدام الفهم النقدي للثقافات الاجنبية واهمال الابعاد القوميـــة ، كثيرا ما يؤديان الـــى تطبيقات أو تأويلات تطمس كنه العمل الفني المنقود ، أو تقودان الى تجاوز متنافر لمجموعة من المصطلحات .

على اننا لا نزعم امكانية تحديد « أفضل » منهج لدراسة الادب العربي ، وانما نكتفي بالالحاح على أهمية هذه الاشكالية التي تعترض كل باحث ينتمي الى ثقافة منتسبة « للعالم الثاني » .

لقد آثرنا ، فيما يخصنا ، استيحاء المناهج الصادرة عن البنيوية التكوينية كما بلورها كل من جورج لوكاش ولوسيان كولدمان ، وبيير بورديو (١١) . وفي رأينا ان ميزة هذا المنهج تتمثل ، فضلا عن مرونته المفهومية ، في الاهمية القصوى التي يعطيها للتاريخ بمفهومه الواسع والمعقد . ولما كان معظم الدراسات المتصلة بالمجتمع العربي وثقافته مطبوعا باضفاء القداسة على حساب التحليل الموضوعي ، فان الصدور عن منهج تاريخي جدلي مرتبط بالقوى الاجتماعية وصراعاتها وانعكاساتها الادبية والفنية من شأنه أن يسهم في تخليص دراساتنا من هالات التقديس والتبرير القائم على أحكام مسبقة .

ربما يرفض بعض الباحثين هـــذا المنهج مؤثرين ملاحقة « الذوق الجديد » المتمثل حاليا في التطلع الى تحقيق علمية الادب وتخليص نصـــوصه من « أعباء » التاريخ وثرثرته . الا اننا نعتقد ان الادب والفكر العربي لا يزالان في حاجة ماسة الى الدراسات المسعفة عـــلى وعي المشاكل المتميزة لثقافتنا ، وعلى تعميق الفكـــر النقدي اللازم للتجديد ، عبر المواجهة والتفاعل . ولأن دراستنا هذه موجهة أساسا للقارىء العربي، فانها تنطلق من المنظور الذي نعتبره ملائما لاعادة طرح بعض القضايا والمشاكل في النقد .

واضح اذن ، ان نيتنا لا تتجه الى كتابـــة سيرة محمد مندور وتتبـــع تفاصيلها أو تقـــديم تفسيرات نفسانية لسلوكه ومواقفه . ان الاسئلة التي تكمن وراء مشروع دراستنا هذه يمكن تلخيصها كما يلي :

١ ــ كيف نفهم كتابات مندور ؟

٢ ــ ما هي الشروح التي يمكن اعطاؤها لتحولاتـه الثقافية والسياسية ؟

لقد قلنا في بداية هذا التقديم بأن اختيار مندور موضوعا لهذه الرسالة ، راجع الـى « تمثيليته » لاتجاه طلائعي في النقد العربي طيـلة عشرين سنة (١٩٤٤ ــ ١٩٦٤) ، والى التأثير الذي لا يزال يمارسه بواسطـة كتبه المقررة في معظم كليات الآداب .

ولكنني حين أعدت قراءة كتاباته بعـد مرور بضع سنوات على وفاته ، فوجئت بذوبان صلابة معظمها أمام التحليل المتعمق .. ومع ذلك يعتبر منـدور وجها بارزا في سماء النقد العربي . كيف السبيل ، اذن ، الـــى تقييم أعماله ؟

هل بالبحث عن الاجزاء المتخطية للمرحلة التاريخية التي كتبت فيها ؟ أم بموضعة الرجـــل وكتاباته داخل الحقل الادبي المرتبط بدوره بحقل السلطـــة باعتباره خاضعا لتكوينات اجتماعية طبقية تلعب الدور الاساسي في تحديد الاتجاهات والاختيارات ؟

اذا كنا قد اخترنا المنهج الثاني ، فاننا لا نتغيا من وراء ذلك تبرير « ذبول » كتابات مندور ، بل نتوخى اعادة رسم المسار الذي قطعه ناقد بارز ، رسما جدليا خاليا من المماثلة يفسح المجال أمام وضع اشكالية النقد العربي انطلاقا من حالة نعتبرها ذات دلالة عميقة .

والواقع ان حالة مندور جد متميزة : فهو لم يكن مجرد ناقد متخصص منغلق على نفسه . كانت نشاطات واهتمامات أخرى تضفـــي عليه بحق طابـــع « المثقف العضوي » (١٢) ، ومن ثم لا يمكن موضعته أو فهـــم

---

(١١) نذكر بالخصوص كتابي لوكاش الهامين : « نظرية الرواية » سلسلة ميدياسيون ١٩٦٣ ، و « الدلالة الحالية للواقعيـــة النقدية » ، كاليمار ١٩٦٠ . ونذكر كتابي لوسيان كولدمان « الاله المستتر » و « من أجـل سوسيولوجية للرواية » . أما بالنسبة لبيير بورديو فقد استفدنا من الحلقات الدراسية التي كان يشرف عليها سنة ١٩٧١ بالمعهد التطبيقي للدراسات العليا بباريس ، والتي كان موضوعها : الحقل السيـــاسي والديني والثقافي ، وكذلك من الدراسات التي نشرهـا فـي بعض المجلات .

(١٢) اعتمدنا على الفصل الهام الذي كتبه انطونيو كرامشي بعنوان : « مشاكل الحياة الثقافية » والمنشور في Oeuvres choisies دار النشر الاجتماعية ، باريس . لقـــد أخذنا عنه مفهـــوم المثقف العضـوي وراعينا عند تطبيقه تغاير السياق الـذي حدده كرامشي . ولكن عمق العلاقة بين المثقف والطبقـــة الاجتماعية التي ينتمـي اليها عن وعي ، هو الـــذي يشكل القاسم المشترك المبرر لهذه الاستعارة . (سنفصل ذلك في الفصل الثاني) .

أعماله بدون اعتبار المرحلة التاريخية المتأججة التي عاشتها مصر من سنة ١٩٤٠ الى ١٩٦٥ ، أي طيلة سنوات الفعالية في حياة مندور .

استبعدت ، وانا أعيد تصوير العلائق بين مندور ومجتمعه ، مفهوم « السيرة الذتية » ، كما تجنبت القيام « بقراءة ابداعية » . ليس لان ناقدنا لم يكن مبدعا ، وانما اقتناعا بأن كل كتابة هي في جوهرها نتاج جهد وذكاء ، تستجيب لشروط مادية قابلة للتحليل . ان معظم السير المكتوبة بالعربية عن الشعراء والادباء والقادة تتخذ من وعي الذات العامل الحاسم وتكتفي بجعل التاريخ والعلائق الاجتماعية والاقتصادية مجرد خلفية تزيينية زائدة في الغالب ، ما دام الشاعر أو الزعيم هو الذي يقرر مصيره بل ويحدد قدر قبيلته أو أمته ! ولأنني غير مقتنع بهذا المنطلق ، اتبنى الانتقاد الذي وجهه بيير بورديو لجان بول سارتر بخصوص كتابه عن فلوبير : « (...) لا مناص من القطيعة مع الاشكالية التقليدية (التي ما يزال سارتر سجينا لها) لنتساءل ، ليس عن الكيفية التي تمكن بها احد الكتاب من أن يؤول الى ما أصبح عليه ، بل لنتساءل عما يلزم أن تكون عليه مختلف فئات الفنانين والكتاب في عصر ومجتمع محددين ، من زاوية الوصف الخارجي للعلاقات الاجتماعية ، ليتسنى لهم أن يشغلوا المواقع التي تسمح بها وضعية معينة داخل الحقل الثقافي ، وتتيح لهم بالتالي ، اعتناق المواقف الجمالية أو الايديولوجية الملتصقة موضوعيا بهذه المواقع » (١٣) .

اما عن نقط الخطاطة العامة لهذه الدراسة فقد استمددناها من استجواب أدلى به محمد مندور لاحد النقاد وقسم فيه مساره النقدي الى ثلاث مراحل : تأثرية ، وتحليلية ، ثم ايديولوجية (١٤) .

على انه اذا كانت قراءة كتبه تؤكد وجود هذه التنقلات المرحلية ، فان السؤال الاساسي في رأينا هو : كيف تمت هذه التحولات ؟ وما هي العوامل المحددة داخل الحقل الثقافي الذي عاش فيه مندور ؟ وهل يتعلق الامر بتطور مراد سعي اليه عن قصد ، أم انه راجع الى علائق موضوعية كانت توجه الحقل السياسي والثقافي ؟

أمام هذه الاسئلة ، رأينا انه يتحتم اللجوء الى « الممارسة النظرية » للتفرقة بين النوايا والتحقق ، وأيضا لفرز التجريبية عن الوعي الملائم .

هناك ، الى جانب ما تقدم ، نقطة أخرى وجهت بحثنا ، وهي الاهتمام الذي أولاه مندور لمنهجية النقاد العرب القدماء ، ونزوعه المتجدد الى تنظير النقد العربي . لاجل ذلك آثرنا تسمية هذه الدراسة : « محمد مندور وتنظير النقد العربي » . وواضح ان مندور يلتقي مع معظم نقادنا الذين يعزون الازمة الى غياب نظرية نقدية ، وهم جميعا ينطلقون من السؤال : هل بالامكان أن يوجد نقد « ذو قيمة » بدون أن يعتمد على نظرية علمية على غرار النقد الاوروبي ؟

كل هذه الفرضيات والملاحظات تكمن وراء الخطوات التي قطعناها في هذا البحث ، لتتخذ التسلسل الآتي :

في الفصل الاول « مندور والمثاقفة أو المرحلة التأثرية » ، حاولنا تحديد العوامل الاساسية في التكوين الثقافي لمندور . ومن غير أن نغفل تأثير الثقافة العربية ، الححنا على تأثره بالثقافة الغربية خلال اقامته الدراسية بباريس (١٩٣٠ — ١٩٣٩) ، ذلك التأثير المتجلي في منحاه النقدي للمرحلة الاولى والواضح في استيحائه لاعمال الناقد كوستاف لانسون .

في الفصل الثاني : « الحقل الادبي في مصر من ١٩٣٦ الى ١٩٥٢ » أردنا أن نملأ فراغا ملحوظا في التحقيب الذي أعطاه مندور لمساره ، ويتعلق الامر بالفترة المتراوحة بين ١٩٤٤ و ١٩٥٢ حينما انخرط في العمل السياسي مبتعدا مؤقتا عن النقد الادبي . كان بالامكان أن نترك في زاوية النسيان هذه الفترة من حياته ، ولكننا لا نستطيع بدونها أن نتبين الدوافع الحقيقية للتغيرات المتتالية التي عاشها مندور أو عرفها الحقل الادبي المصري .

نكتفي في الفصل الثالث : « مرحلة النقد التحليلي » بعرض جوهر الكتابات التي نشرها مندور بين ١٩٥٤ و ١٩٦٠ ، وهي في معظمها محاضرات ألقاها بمعهد الدراسات العليا للجامعة العربية . واذا كان يهدف من هذه الدراسات الى تحليل الشعر المصري بعد شوقي ، فانه لم يعد في مقاييسه يعتمد على الذوق التأثري فقط ، بل أخذ يجنح الى اصطناع المنهج الاجتماعي التاريخي واعتبار الادب قيمة حياتية عاكسة للصراع المجتمعي . وهذا ما جعله يدخل في خصومات جدالية مع التيار التقليدي وبخاصة مع حواريي أمير الشعراء . وبتواز مع هذه الدراسات ، كان مندور يضطلع بمهمة تقديم المذاهب الادبية والمسرحية والنقدية الاجنبية الى القارىء العربي .

نصل في الفصل الرابع الى نقطة الاوج في مسار

---

(١٣) بيير بورديو :
Champ du pouvoir , champ intellectuel et habitus de classes, revue Scolies , 1971 - 1 , Presses universitaires de France .

(١٤) فؤاد دوارة : « عشرة ادباء يتحدثون » ، كتاب الهلال ، القاهرة ، ١٩٦٥ .

مندور وفي خطـــوات بحثنا : « النقـــد الايديولوجي والتنظير » . ربما كان يتحتم اعادة تصوير الحقل الادبي في مصر من ١٩٥٢ الى ١٩٦٥ ، ولكن مثل هذه الدراسة التفصيلية تتعدى نطاق مشروعنا . لذلك حاولنـــا ، سدا لهذه الثغرة ، استخلاص عناصر التغيير الحاسمـة في الحقل الادبي عن طريق عرض المنـــاخ الايديولوجي السائد : فعلا ، ما كان بوسع مندور ، وسط الجـــو المحموم الناجم عن التسابق الى الادلجة (Idéoligation) أن يفلت من ميكانيزم التكييف . الا ان هناك ، هذه المرة، فرقا جوهريا : خلال الفترة الممتدة من ما قبل الناصرية وما بعدها ، تغيرت أشياء كثيرة . ومن هذه التغيرات التي تهمنا ، وضعية مندور المثقف : كان ، كما قلنا ، مثقفا عضويا يناضل في حركة جماهيرية ضد الاستغلال البورجوازي والامبريالي ، ولكنه بعد قيام نظام ١٩٥٢ فقد الكثير من مظاهر تلك العضوية : ذلك ان الناصرية تبنت الشعارات والبرامج نفسها التي كانت تنادي بهـا الاحزاب السياسية . ومن ثم فان العلاقة العضوية مـع الطبقات والاحزاب تحولت ، بين الناصريـة والمثقفين ، الى ارتباط قوامه « استعمال » هـــذه الطاقات دون اشراكها في المسؤولية الفعلية للسلطة .

لاجل ذلك فان الفرضية التي حاولت التدليل عليها هي ان مفهوم النقد الايديولوجي الذي انتهى اليه مندور في نهاية المطاف ، ما هو الا انعكـاس للميكانيزم المتحكم في الحقل الثقافي الجديد بعـد سنة ١٩٥٢ . ومن ثم فاننا لا يمكن أن نفهم لبس مصطلحاته واحتياج تحليلاته الى العمق والصلابة النظرية الا بترابط مع الاتجـــاهات الثقافية والايديولوجية السائدة آنذاك .

على ان غرضنا من هذا الربط ومن هذه المنهجيـة ليس هو ابراز القصـــور النظري والايديولوجي لمحمد مندور ، أو تأطيره في تصنيف ما ، بل نرمي مـن وراء هذه المعاينات المتولدة عن تحليـــلات موضوعية ، الى التأكيد على التفاعل المحدد للعلائق القائمة بين المجتمـع والثقافة وبين المنتجين في هـــذا الحقل ، والعوامل الموجهة لنوعية الانتاج والاختيار ، وبخاصة حينما يتعلق الامر بمجتمع معرض للهيمنة الاقتصادية والثقافيـــة الاجنبية .

اعتبارا لهذا المنظور يصبح كل شرح لأزمة الثقافة الوطنية بانعدام النظرية أو بتعثـر التبرجز أو بانخفاض مستوى التعليم .. مجرد تحليق بعيـــدا عن الارض الواقعية التي يتم فوقها الفعل .

اننا نعتقد ، مراعاة لكل ما تقـــدم ، في جدوى الاسهام بنقد للنقد ، وذلك عـــن طريق تجلية النوايا الكامنة وراء الخطوات والمناهج ، وعن طريق منهجـــة اللحظات النظرية التي سلكها محمد مندور . ولعلنا من ورائه نطل على بعض جوانب اشكالية النقـــد العربي المعـاصر .

صدر حديثا

روايات وقصص

د. سهيل ادريس

في طبعـة جديدة :

الحي اللاتيني

(الطبعـة السابعـة)

الخندق الغميق

(الطبعة الثالثـة)

اصابعنا التي تحترق

(الطبعة الثالثـة)

قصص سهيل ادريس

في جزئين :

اقاصيص اولى

اقاصيص ثانية

منشورات دار الآداب